اليهودي إليها يعرف ما يدفعه إلى ذلك، ولكنه عندما ينزح منها لا يعرف سبب ذلك (ص ٩٢). كما أن الهجرة إلى «أرض إسرائيل»، بحسب ما جاء في الرواية، هي واجب على كل يهودي: «يجب على كل يهودي أن يسعى للهجرة إلى أرض إسرائيل ليحظى بالسكن فيها، لان الأمة الإسرائيلية مصدرها هناك». (ص ١٧٧).

كما تدعو الرواية إلى تبنّي شعارين: العمل العبري، واحتلال العمل الذي رفعه بعض رجال الهجرة الثانية، وعلى رأسهم أهرون دافيد غوردون صاحب «دين العمل»، وها هو بطل الرواية اسحـق كومار «يتحدّث بحماس عن دين العمل» (ص ١٧٦). والمعروف إن تنفيذ هذين الشعارين، كان سيقود بالضرورة إلى إلحاق أفدح الأضرار بالعمال العرب سكّان البلاد الأصليين، ناهيك بالحديث عن الأضرار التي كانت ستنجم عن الإستيطان ومراميه، والتي سيكون ضحيتها عرب فلسطين. وعجنون كان يدرك ذلك بالتأكيد. وكان يدرك، بلا ريب، انه عمل غير إنساني وغير أخلاقي البتّة. وهنا تهاجم الرواية، خدمة لشعاري العمل العبري واحتلال العمـل، «إستخدام العمـال العرب لخبـرتهم ورخص أجورهم» (ص ٦٠).

ويأتي انتقاد التراخي عن الإستيطان مواكباً «للدعوة إلى العمل وفلاحة الأرض» (ص ٣٨). «واولئك الذين يعتبرون أنفسهم مبعوثي الأمّة ومنقذي إسرائيل دون أن يقوموا بأي عمل، لا يعرفهم الشعب ولا يرغب في معرفتهم... إنهم ينتظرون مستقبلاً أفضل، بينما يقوم العرب بإنجاز عملهم» (ص ٣٨٩).

ولا بد من الإشارة هنا، إلى أن النظرة النقدية إلى الزعماء الصهيونيين والمؤسسات الصهيونية في الرواية ليست مطلقة، بل انها مرهونة بقدر ما يقدّمه هؤلاء الزعماء وتلك المؤسسات من مساهمات، من أجل تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين والإستيطان بمضمونه اليهودي الصهيوني، فكلّما تراخوا عن هذين الهدفين زادت وتيرة الإنتقادات، أما إذا قدّموا شيئاً، مهما كان ضئيلاً، فالمديح من نصيبهم. فالرواية تكيل المديح لتيودور هرتسل مؤسس المنظمة الصهيونية العالمية، بسبب الدور الذي قام به في سبيل تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين وتنظيم النشاط الإستيطاني فيها: «لولا ظهور هرتسل لكنّا قد أضعنا أيامنا في المنفى ولما هاجرنا إلى أرض إسرائيل» (ص ٢٣).

النظرة العنصرية إلى العرب: وننتقل إلى الجانب الثاني، ونعني به نظرة عجنون إلى العرب، كما تُعبِّر عنها الرواية، وهي نظرة معادية ولا شك. فهو يتحامل عليهم بشكل واضح، ويعتبرهم حجر عثرة في طريق الإستيطان اليهودي في فلسطين، وخطراً على اليهود عموماً، وينسب إليهم كل ضرر يلحق باليهود، ولا يترك مناسبة إلا ويبحث عن شيء يسيء إلى عرب فلسطين سكّانها الأصليين. وحتى نكون منصفين في عرضنا لهذه المسـألة، سنكتفي بإيراد أمثلة، وما أكثرها في الرواية، تثبت أنه يَصدر، في كلامه، عن نظـرة عنصرية ضد العرب.

فلدى وصول اسحـق كومار، بطل الرواية، إلى فلسطين، وفي ميناء يافا «يقابله